الدوريات الثقافية العربية في وضعها الراهن وآفاق المستقبل

رجاء النقاش

لن يكون حديثي في هذه الندوة الكريمة عن التفاصيل التاريخية للدوريات والمجلات الثقافية، فمن بين الذين يشاركوننا في هذه الندوة من درسوا هذا الموضوع بعناية ودقة وعلى رأسهم الباحث الناقد الدكتور علي شلش، ولن ألجأ إلى الإشارات التاريخية إلا عند الضرورة التي تفرض ذلك، وسأحاول أن يكون حديثي الرئيس قائماً على تحليل المادة التاريخية وعلى بعض التصورات والأفكار حول المجلات الثقافية، وذلك من خلال تجربتي كقارىء أولاً، وكمشتغل بالأدب والثقافة ثانياً، ثم من خلال إشرافي على تحرير مجلتين ثقافيتين هامتين هما مجلة **الهلال** من سنة ١٩٦٩ إلى سنة ١٩٧١ ومن سنة ١٩٧٦ إلى سنة ١٩٧٧، ثم مجلة **الدوحة** التي أتيح لي أن أتولى رئاسة تحريرها منذ أول سنة ١٩٨١ وحتى أغسطس آب ١٩٨٦ عندما تقرر إيقافها عن الصدور.

والحقيقة أنني أتمنى أن تخرج هذه الندوة بتأكيد معنى أساسي أظن أنه أصبح غائباً الآن عن حياتنا الثقافية، وهذا المعنى هو أن المجلة الثقافية ليست ترفاً ولا زينة، ولكنها في صورتها الحقيقية لا تقل عن أي جامعة كبرى، بل هي أخطر من الجامعة لأنها حرة ومفتوحة ولا قيود على الاستفادة منها والتعلم فيها والاستنارة بأضوائها القوية، وكم أحس بالحزن والأسف عندما أشعر الآن أن المجلة الثقافية في الوطن العربي قد أصبحت من الكماليات التي يمكن الاستغناء عنها في أي وقت، بل أصبحت من الكماليات التي تأتي في الدرجة الثانية أو الثالثة أمام كماليات الدرجة الأولى التي يراها الكثيرون أجدى وأنفع. ونحن بهذه الفكرة الخاطئة نخسر كثيراً ولكننا نستهين بهذه الخسارة ولا نكاد نحس بها، فقد أصبحنا في بعض أمورنا الأساسية كما يقول المتنبي: «... ما لجرح بميت إيلام». فأسهل قرار عندنا هو إغلاق المجلات الثقافية، وأنا قادم إليكم من القاهرة وآخر ما سمعت من أخبارها الثقافية «المبهجة!» ذلك القرار الذي اتخذته هيئة الكتاب في مصر بإغلاق كل المجلات الثقافية التي تصدرها وزارة الثقافة. والحق أن هذه المجلات لا تستحق أن نبكي عليها كثيراً، فهي مجلات ضعيفة خاملة قليلة التأثير والنفع، بل إن بعضها يضر أكثر مما ينفع. ولكن الحل ليس هو الإغلاق بل البحث في أسباب الفشل وعدم النجاح ومعالجة هذه الأسباب بوعي ومسؤولية. وما أشبه قرار إغلاق هذه المجلات بالفكرة التي طرحها البعض في مصر أيضاً والتي تدعو إلى بيع أكثر من أربعة آلاف لوحة عالمية تملكها مصر، لأنها آثار فنية مهانة وغير مصانة، والحل الصحيح طبعاً هو أن نصون هذه الثروة ونخرجها من بين المخازن والأتربة، ونجعل منها مصدراً للمكاسب المادية وغذاء للوجدان بدلاً مما هي عليه الآن من إباحتها لجمهور عظيم من الفيران.

وقد يساعد على تأكيد معنى الأهمية الكبرى للمجلة الثقافية أن نعود بذاكرتنا إلى بعض الوقائع وسوف أركز هنا على ثلاثة منها وهي:

١ ـ في أوائل الستينات كانت تصدر في بيروت مجلة ثقافية معروفة هي مجلة **حوار**، وكان يرأس تحريرها الأديب الفلسطيني الأستاذ توفيق صايغ، وكان الشك يحيط بتمويل هذه المجلة، ولكن لم يكن هناك دليل قاطع يثبت الشبهة ويؤكد الشكوك. وحوالي سنة ١٩٦٥ كشفت الصحف الأمريكية جانباً من نشاط المخابرات المركزية الأمريكية، وكان من بين هذا النشاط تمويل عدد من المجلات الثقافية في مختلف أنحاء العالم، من بينها **مجلة حوار العربية**. ولعل الوفاء لذكرى صاحب المجلة ورئيس تحريرها توفيق صايغ، يقتضينا أن نقول أنه ربما كان مظلوماً ومتورطاً بغير علمه في هذا الموضوع، فلقد قيل له إن الممول هو منظمة حرية الثقافة العالمية، ولم يكتشف توفيق صايغ أن هذه المنظمة ليست إلا وسيطاً للمخابرات المركزية، وقد أغلق توفيق صايغ المجلة بعد أن انكشف المستور من أمرها،

وسافر إلى أمريكا ليعمل باحدى جامعاتها، وهناك مات فجأة بأزمة قلبية، ويقول الذين كانوا قريبين منه إن صدمته في قضية تمويل مجلة **حوار** كانت هي الصدمة العنيفة التي ملأت قلبه بالحزن والأسى وقضت عليه في آخر المطاف.

وهنا نتساءل: لماذا يهتم أقوى جهاز للمخابرات في العالم بإصدار مجلة ثقافية في الوطن العربي؟ إن الإجابة واضحة، وهي أن المجلة الثقافية عند من يدركون حقائق الأمور هي أداة فكرية بالغة القيمة والأهمية والتأثير.

٢ ـ عندما نراجع تاريخ المجلات الثقافية في مصر في النصف الأول من القرن العشرين نجد أن الأحزاب السياسية الكبرى كانت تحرص على أن يكون لها إلى جانب صحافتها السياسية مجلات ثقافية مؤثرة، وأشهر مجلتين في هذا الميدان هما **البلاغ الأسبوعي** التي كان يصدرها حزب الوفد، و**السياسة الأسبوعية** التي كان يصدرها حزب الأحرار الدستوريين، وكان هذان الحزبان هما أكبر حزبين في مصر حتى الأربعينات، وإن كان أولهما وهو الوفد ممثلاً للقوى الشعبية، بينما كان الثاني وهو الأحرار الدستوريون ممثلاً للأرستقراطية ومصالح الإقطاعيين والرأسماليين. وقد حرص هذان الحزبان الكبيران على أن يكون لكل منهما مجلته الثقافية الأسبوعية حتى يتمكن بها من التأثير على العقل والاتجاهات الفكرية المختلفة في البلاد.

٣ ـ في أكتوبر/ تشرين الأول سنة ١٩٤٥ صدرت مجلة **الكاتب المصري** التي كان يرأس تحريرها الدكتور طه حسين وظلت تصدر حتى مايو/ أيار سنة ١٩٤٨، وهو الشهر الذي تم الإعلان في ١٥ منه عن قيام دولة إسرائيل. وكانت مجلة **الكاتب المصري** تصدر عن «دار الكاتب المصري للطباعة والنشر» وكانت هذه الدار شركة يملكها يهود مصريون. فما الذي يجعل اليهود المصريين من أسرة «هراري» وشركائهم يحرصون على إصدار مجلة ثقافية كبرى ويختارون لها أكبر أديب عربي معروف في ذلك الوقت وهو طه حسين رئيساً لتحريرها؟ ليس من شك في أن اليهود المصريين كانوا يدركون الأهمية البالغة للمجلة الثقافية ويعرفون أنها أداة من أخطر أدوات التأثير في الرأي العام. وهنا لا بد أن أشير إلى ما أومن به من براءة طه حسين التامة من أي تواطوء مع اليهود المصريين في قضية **الكاتب المصري**. فقد كان الوطنيون المصريون عموماً يظنون أن يهود مصر الذين وصل تعدادهم إلى ما يقارب من ربع مليون نسمة قبل قيام إسرائيل، هم أصحاب ولاء مشترك مع غيرهم من المواطنين للبلاد التي ولدوا وعاشوا فيها وفتحت لهم كل أبواب الحياة والنجاح المادي والمعنوي بغير تعصب أو كراهية. وقد أثبت الدكتور علي شلش في كتابه **دليل المجلات الأدبية** جزءاً من الرسالة التي كتبها طه حسين إلى إحدى الصحف الفلسطينية بعد صدور العدد الأول من **الكاتب المصري** في اكتوبر/ تشرين الأول ١٩٤٥، حيث يقول في هذه الرسالة إن المجلة تصدر عن دار يملكها «سبعة من اليهود المصريين اشتركوا في عمل تجاري صرف قوامه نشر الأدب العربي قديمه وحديثه ونقل الجيد من الآداب الغربية إلى لغة الضاد، وطلبوا إليّ أن أكون مشيرهم في ذلك فقبلت بعد أن استقصيت وأحسنت الاستقصاء وتبيّنت أن الأمر لا يتصل بالصهيونية من قريب أو من بعيد».

ومن أسخف الأمور فيما أتصور أن يكون هنا اتهام لطه حسين بالتواطوء مع الصهيونية، وأعداد المجلة الإثنان والثلاثون موجودة بين أيدينا وهي تثبت أن طه حسين قد أحسن قيادة المجلة في الاتجاه الثقافي والحضاري والوطني السليم. وعندما قامت إسرائيل وأظهر اليهود المصريون التعاطف معها، سارع طه حسين إلى إغلاق المجلة في الشهر نفسه الذي قامت فيه الدولة الصهيونية.

على أن براءة طه حسين من أي تهمة تمس شرفه ووطنيته لا ينفي ما ينبغي أن نلتفت إليه من أن اليهود في مصر كانوا مهتمين أشد الاهتمام بأن ينشئوا مجلة ثقافية كبرى، ولا شك أنهم كانوا يريدون بهذه المجلة أمراً، ولكن قيادة طه حسين لها لم تمكنهم من تحقيق أي هدف لهم خارج الهدف التجاري الخالص.

تلك هي النماذج الثلاثة التي قصدت من الإشارة إليها تأكيد الحقيقة التي توشك أن تغيب عنا الآن، وهي أن المجلة الثقافية كانت أداة بالغة الأهمية، تسعى إلى امتلاكها القوى الوطنية والقوى غير الوطنية، لأن الوعي بأهميتها كبير وأساسي، وكل من يسعى إلى التأثير العميق في المجتمعات والشعوب يسعى إلى امتلاكها والسيطرة عليها.

إن عنوان ندوتنا هو «الدوريات الثقافية العربية في وضعها الراهن وآفاق المستقبل»، وليس في العنوان الذي يجب أن نلتزم به إشارة إلى الماضي، ولكن الحقيقة أن الماضي هو جزء من الحاضر والمستقبل، وإذا اعتبرنا الدورية الثقافية كائناً حياً، وهي كذلك، فلا بد من النظر إلى الماضي بعين الاعتبار، فكثيراً ما يحكمنا هذا الماضي دون أن ندري، وأي طبيب ماهر لا يلقي نظرة فاحصة على ماضي مريضه لا يستطيع أن يقوم بالتشخيص الصحيح لحاضره الصحي، فالطفولة والصبا والشباب لها تأثير في دور النضج والاكتمال، وهذا هو ما سوف يدفعني دفعاً إلى الخروج قليلاً عما التزمت به من عدم الخوض في التاريخ، لأنتهي من ذلك إلى النتائج الرئيسة التي أتصور أنها صالحة للعرض عليكم في هذه الندوة الكريمة.

لقد قامت النهضة الفكرية العربية في القرن الماضي على ثلاث وسائل أساسية هي المطبعة والصحافة اليومية والمجلة الثقافية. وكانت المجلة الثقافية هي آخر مواليد النهضة الفكرية بعد المطبعة والصحافة اليومية. وقد خرجت هذه الوسائل الثلاث بالثقافة والفكر في الوطن العربي من نطاق التخصص واهتمام الصفوة المحدودة إلى مجال أوسع وأشمل يتصل بالأمة كلها. وهذه الوسائل الثلاث هي صاحبة الفضل الأكبر في خلق ما نسميه الآن باسم

«الرأي العام»، وقد تأخرنا عن الغرب في التعرف على هذه الوسائل واستخدامها ما يقرب من أربعة قرون، وكان لذلك أثره السلبي الكبير في اضعاف شخصية الأمة وتقييد عقلها وفكرها وقدرتها الإبداعية، ثم التمهيد بعد ذلك لغزو الغرب لنا واستيلائه على معظم أنحاء الوطن العربي خلال القرن التاسع عشر. وما يزال هناك سؤال حائر لا توجد له إجابة قاطعة عندي، هذا السؤال هو: لماذا لم يتعرف العرب على الطباعة في الأندلس، وقد اخترع الغربيون المطبعة سنة ١٤٤٠، وظل العرب في الأندلس حتى سنة ١٤٩٢، وذلك عندما سقطت غرناطة آخر الممالك العربية وسلمت مفاتيحها لملوك الإفرنج؟

والإجابة المحتملة ولعلها تكون الوحيدة لهذا السؤال هو أن العرب انشغلوا في القرن الأخير من حياتهم في الأندلس بخلافاتهم العنيفة وحرصهم على السلطة واللهو والترف، وانشغالهم بمصالحهم الصغيرة عن متابعة عصرهم ومحاولة فهمه ومعرفة حقيقة ما كان يجري فيه، وبذلك ضعفت حاستهم الحضارية التي كانوا بها يتميزون، فعجزوا عن متابعة التقدم الحضاري الغربي والمشاركة في مجالاته المختلفة ومنها الطباعة والسلاح والعلوم البحرية، رغم أن العرب كانوا هم الطليعة الحقيقية والعامل المؤثر في نهضة الغرب. وهناك مؤشرات قوية ذات دلالة عميقة في هذا المجال، منها أن كلمة «مجلة» التي عرفها الغربيون قبلنا بعدة قرون هي كلمة مأخوذة في اللغة الإنجليزية من اللغة العربية، فالكلمة في الإنجليزية هي «مجازين» وقد أثبت الباحثون عرباً وغربيين أن «مجازين» هي نفسها كلمة «مخزن» العربية. كذلك كان أول كتاب طبعته المطبعة التي اخترعها الأوروبيون هو كتاب مترجم عن اللغة العربية، وكان مجموعة من الحكم والأمثال التي تتحدث عن تجارب الحياة وسلوك الإنسان. كذلك فإن اكتشاف أمريكا على يد كولومبوس قد تم في العام نفسه الذي خرج فيه العرب من أسبانيا، أي عام ١٤٩٢، وهذا كله يعني بوضوح أن العرب كان لهم دورهم في صياغة مقدمات النهضة الأوروبية العظمى، وأن هذا الدور لم يكن من الأدوار الهيّنة ولا الثانوية، ولكن العرب لم ينتفعوا بثمار النهضة إلا بعد قرون عديدة، وبعد أن كانت هذه النهضة نفسها سبباً في سيطرة الغرب على الأمة العربية وثرواتها المختلفة.

وبالرغم من أن الحسرة على الماضي لا تجدي شيئاً في تغييره، إلا أن الانسان لا يملك نفسه من الدهشة البالغة بسبب خروج العرب من الأندلس بعد خمسين سنة على التقريب من اختراع الطباعة دون أن يعرفوا شيئاً عن هذا الاختراع، ودون أن يحملوه معهم إلى البلاد العربية التي انتقلوا إليها بعد خروجهم الكبير من الأندلس. ولو حدث ذلك لتغيرت أمور كثيرة في التاريخ العربي رغم الهزيمة القاسية والحاسمة التي حلت بالعرب في أسبانيا. وتلك كلها ملاحظات للتأمل، وخلاصتها الأساسية هي أن أخطر ما تصاب به الشعوب هي الغفلة الحضارية التي تحجب عن العقل فضوله للمعرفة والاكتشاف، وتعمي بصره وبصيرته عما يتفجر حوله من مظاهر التقدم ووسائل التغيير والنهوض.

★ ★ ★

ولقد أدى هذا الوضع الحضاري والثقافي الذي فرض علينا التخلف، إلى تأخر ظهور المجلة الثقافية في الوطن العربي، وقد قامت المحاولة الأولى الرائدة لخلق المجلة الثقافية سنة ١٨٧٠، وقامت هذه المحاولة على يد «ديوجين العربي» الذي حمل في يده من باريس مصباحاً أنار به ظلام العقول، وفتح على ضوئه الباهر عيوناً أضناها طول التحديق في العتمة الفكرية والحضارية التي أحاطت طويلاً بالوطن العربي، هذا الرائد هو رفاعه الطهطاوي، والمجلة الثقافية التي أنشأها هي **روضة المدارس**، وقد استمرت في الصدور كل نصف شهر لمدة ثماني سنوات. ولا يمكن لأي باحث في تاريخ الدورية الثقافية أو المجلة الثقافية إلا أن يتوقف أمام محاولة رفاعة الطهطاوي، فهذه المحاولة هي التأسيس الأول للمجلة الثقافية العربية، وكان هذا التأسيس راسخاً وصحيحاً في مبادئه الجوهرية، وعلى هدى هذا التأسيس السليم ظلت المجلات الثقافية العربية الناجحة تصدر منذ مائة وعشرين عاماً إلى الآن.

صدرت مجلة **روضة المدارس** في عصر الخديوي إسماعيل، وكان هذا العصر مليئاً بالطموح إلى النهضة والتنوير، كما كان مليئاً في الوقت نفسه بالأخطاء السياسية والاقتصادية الفادحة التي أدت إلى احتلال الإنجليز لمصر بعد ذلك سنة ١٨٨٤ م. على أن هذا الوضع المتناقض قد أتاح للرائد الكبير رفاعة الطهطاوي أن يمسك بما في العصر من خيوط إيجابية، ولأنه كان من كبار أصحاب العقول الواقعية، وكان من أشداء الرجال الذين لا يعرفون اليأس ولا يعترفون به، فقد حاول على الدوام في اعتدال وذكاء أن يستثمر أي هامش للعمل ولو كان صغيراً، وأن يستغل أي فرصة متاحة ولو كانت ضيقة، ولم يكن من الذين يعاندون السلطة، ولكنه في نفس الوقت لم يكن من المنافقين التابعين الباحثين لأنفسهم عن مكان بين أصحاب الجاه والنفوذ. كان رجلاً واسع الأفق شديد المرونة فيما لا يمس المبادىء الأساسية. ومن خلال هذا المنطق قام رفاعة الطهطاوي بإنشاء أول مجلة ثقافية في مصر والوطن العربي كله وهي **روضة المدارس**، وكانت المجلة صادرة عن وزارة المعارف، وما زالت هذه المجلة - فيما أعلم - ملقاة بإهمال في دار الكتب المصرية رغم أنها جديرة بأن يعاد نشرها كاملة لنتعلم منها الكثير.

ماذا فعلت روضة المدارس وما هو الاتجاه الفكري الذي قامت عليه؟

لقد قدمت هذه المجلة في أعدادها المختلفة مبادىء أساسية لتكوين أي مجلة ثقافية ناجحة ومؤثرة. وأول هذه المبادىء هو «التبسيط»، حتى تتمكن المجلة من نقل المعرفة والرأي إلى جمهور عريض. وفي ذلك يقول رفاعة الطهطاوي في تقديمه للمجلة: «إن

كل ما ينشر في المجلة سوف يكون سهل العبارة، واضح الإشارة، وألفاظه فصيحة لا تتجشم صعب التراكيب».

ثم يحدد الطهطاوي بعد ذلك هدفه من هذا التبسيط في عبارة بديعة طريفة فيقول أن هدف المجلة هو «أن تتكشف للعامة **مخدَّرات** العلوم، وترتفع حجبها المستورة».

والمخدَّرات هنا مشتقة من الخِدْر أي الحجاب، والمعنى الكبير في هذه الكلمات هو أن الثقافة ينبغي أن تنتشر وتعم، ولا تكون محجوبة عن عقول الناس أو محصورة بين المتخصصين والصفوة وأصحاب السلطان والذين يؤمنون أن الثقافة هي امتياز للقادرين اجتماعياً واقتصادياً، وأن هذا الامتياز لا يجوز أن يكون حقاً عاماً يتمتع به كل الناس على أرض الوطن. وفي هذه الإشارة من رفاعة الطهطاوي إلى مادة المجلة الثقافية ثلاثة معان لها أهمية بالغة:

الأول هو أن الثقافة لها وظيفة اجتماعية في تربية الشعوب ورفع مستواها العقلي وتهيئتها للتقدم والنهوض، وليست الثقافة ترفاً وزينة ومجموعة من الندماء والمطربين لكل من أصابه الملل من ذوي المال والجاه والحياة الفارغة من الهدف والغاية.

الثاني هو أن اشارة رفاعة الطهطاوي السابقة كانت إيذاناً بميلاد فن جديد لم تعرفه الثقافة العربي من قبل وهو «فن المقال». وهذا الفن هو العمود الفقري للمجلة الثقافية، وهو فن عظيم الأهمية، ولا يقل شأناً عن القصيدة والقصة القصيرة والمسرحية ذات الفصل الواحد وغير ذلك من الفنون التي تعتمد على التركيب والبناء. وبازدهار فن المقال تزدهر المجلة الثقافية، أمّا تدهور هذا الفن واختلاطه بالبحوث والدراسات وفصول الكتب فهو من المؤثرات السلبية على أي مجلة ثقافية. وإذا كان من حق المجلة الثقافية أن تنشر البحوث وفصول الكتب المسلسلة فإن ذلك لا يجوز أن يحجب الحقيقة الأساسية وهي أن فن المقال هو العنصر الرئيس في تكوين المجلة الثقافية. ويبدو لي أن هذا الأمر قد أصبح غائباً عن الكثير من المجلات الثقافية العربية التي تصدر الآن، وهو سر من أسرار الأزمة التي تعانيها معظم هذه المجلات.

المعنى الثالث في عبارة الطهطاوي هو التأكيد على ضرورة «التوصيل الجيد» بين المجلة والقارىء. وهذا المعنى أساسي، وقد يكون بديهياً، ولكنه كثيراً ما يغيب عن المجلات الثقافية العربية، فتغرق في التعقيد والإغراب والتعالي الفكري واللغوي فتفقد القدرة على التواصل مع القارىء، وبذلك تفقد جدواها ومبرر وجودها.

على أن الطهطاوي في تحديده لوظيفة مجلته الثقافية العامة لم يتوقف عند حدود «التبسيط» وشروطه بل اهتم بصفة أخرى هي «التنوع». فقد حرص الطهطاوي على انتشار المجلة واتساع نطاق قرائها مع التحديد الواضع لنوعية هؤلاء القراء، فقال في افتتاحية العدد الأول إن **روضة المدارس** تتكفل بانتشار أنواع العرفان بين كل محب لاقتباس العلوم من أبناء الأوطان، وخصوصاً بين أبناء المدارس، فإنها تكون بالنسبة لهم ولغيرهم أعم نفعاً وأعظم وقعاً بما انطوت عليه من نشر الفوائد العلمية الفائقة حتى تتسع دائرة معقولهم ومنقولهم».

بالإضافة إلى ذلك كله، بل وفوق ذلك كله، كان لهذه المجلة الأولى في الوطن العربي «قضية» أو «قضايا أساسية» تتسم بروح التجديد أو الروح المستقبلية. فالحماس الواعي لقضية واضحة يملأ المجلة الثقافية بالحرارة ويجعلها قادرة على التأثير. وكان الطهطاوي في مجلته **روضة المدارس** كما كان شأنه دائماً صاحب قضية تجديدية تنويرية من الطراز الأول، وقد جعل على رأس اهتماماته تجديد الفكر الديني، فنشر في المجلة كتابين على شكل سلسلة من المقالات، تتوفر في كل منها شروط المقال الناجح بمقاييس عصره. وأول هذين الكتابين هو **القول السديد في الاجتهاد والتجديد** والثاني هو **نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز**. ولكي نعرف قيمة النزعة التجديدية عند الطهطاوي يكفي أن نقرأ التعليق الذي كتبه الباحث الدكتور أحمد حسين الصاوي على ذلك الكتاب الذي ألفه الطهطاوي عن سيرة الرسول الكريم. يقول الدكتور الصاوي: «إن هذا الكتاب كان أول كتاب عربي في العصر الحديث عن سيرة الرسول بعد انقطاع الكتابة عن هذا الموضوع أكثر من أربعة قرون متصلة، وإنه أول كتاب في السيرة يجمع فيه كاتبه بين الإيمان الوجداني بالرسالة المحمدية وبين المنهج العلمي العقلاني، فهو لا يكتفي بالمسلمات والسرد العلمي للوقائع والأحداث، وإنما يستخدم التحليل والاستدلال، ويربط الدعوة الاسلامية بالظروف الاجتماعية التي كانت سائدة في شبه الجزيرة العربية».

هذه بعض ملامح التجديد في الفكر الديني التي تبناها الطهطاوي في مجلة **روضة المدارس** منذ مائة وعشرين عاماً، ومثل هذه الأفكار كانت تمثل ثورة كاملة في ذلك الحين. والأساس الذي أقام عليه الطهطاوي اجتهاده في الفكر الديني هو الذي خلق ذلك التيار التجديدي القوي الذي يقاوم ويجاهد حتى الآن، والذي بدأ بمحمد عبده وامتد إلى العقاد وهيكل وطه حسين وأحمد أمين ومحمود شلتوت ومحمد محمد المدني وعلي الوردي ومحمد الغزالي وخالد محمد خالد وغيرهم.

أما القضية الثانية التي تبناها الطهطاوي في مجلته الثقافية **روضة المدارس** فهي تلك التي تمثلت في سلسلة مقالات تم جمعها في كتاب هو **المرشد الأمين في تعليم البنات والبنين**. وتضمن هذا الكتاب أول دعوة في الوطن العربي لتعليم المرأة، وبهذه الدعوة كما يقول الطهطاوي بأسلوب عصره تكون «قد تمت التسوية في كتاب المعارف بين البنات والبنين، ولم يعد العلم كالإرث للذكر مثل حظ الأنثيين، فبهذا سوق المعارف المشتركة قد قامت، وطريق العوارف للجنسين قد استقامت، فقد أحيا ذلك في طباعهن نجاح الآمال ونشر لهن أعلام المقال والفعال، وخصهن بمدارس كالصبيان يخرجن بها من حيز العدم إلى الوجدان».

وعلينا أن نتذكّر أن هذا الكلام كان يقال منذ أكثر من مائة عام،

وأن مجلة **روضة المدارس** كانت تتبنى هذه القضايا الساخنة والجريئة في ذلك الوقت، بينما تتردد الآن بعض أصوات الردة حتى في مصر نفسها لتدعو إلى تقييد التفكير الديني بأشد القيود ضيقاً وقسوة وبعداً عن حقائق العصر والحضارة، كما تتردد أصوات أخرى لتدعو إلى حجب المرأة عن التعليم والعمل والحياة إلا في البيت من وراء حجاب كثيف.

هكذا جسّدت هذه المجلة الثقافية الأولى عناصر النجاح الضرورية بالنسبة لأي مجلة ثقافية، وهي التبسيط والتنوع والشعبية وتبني قضايا تجديدية رئيسة تكسر الجمود وتدفع المجتمع والفكر إلى الأمام.

★ ★ ★

وإذا تركنا دور التأسيس الذي قام به الطهطاوي في ميدان الدوريات أو المجلات الثقافية سوف نجد أنفسنا أمام مرحلة أخرى يمكن أن نسميها باسم «المرحلة الشامية» في مجال الدوريات الثقافية. فقد دخل المثقفون الشوام هذا الميدان بعد سنوات قليلة من ظهور **روضة المدارس**، وبدأت هذه المرحلة الشامية بظهور مجلة **المقتطف** في بيروت سنة ١٨٧٦ م ثم انتقلت هذه المجلة إلى القاهرة سنة ١٨٨٥ وظلت تصدر في مصر حتى توقفت سنة ١٩٥٢، وكان مؤسسا هذه المجلة هما يعقوب صروف وفارس نمر. ثم ظهرت مجلة **الهلال** سنة ١٨٩٢ م وكان مؤسسها هو جرجي زيدان، وما زالت هذه المجلة تصدر إلى الآن، وبعد سنتين سوف يكون عمرها مائة سنة، وبذلك تكون هذه المجلة هي أطول المجلات الثقافية العربية عمراً. وقد بذل المثقفون الشوام في ميدان المجلات الثقافية جهداً بارزاً وشديد التميز، وأصدروا عدداً كبيراً من هذه المجلات منذ أواخر القرن الماضي وحتى قيام ثورة يوليو/تموز سنة ١٩٥٢. ولعل آخر مجلة صدرت على يد هؤلاء المثقفين الشوام في مصر كانت مجلة **الكتاب** التي كانت تصدرها دار المعارف وكان يرأس تحريرها الشاعر والأديب اللبناني عادل الغضبان، وقد صدرت هذه المجلة في نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٤٥ وتوقفت عن الصدور في يوليو/تموز ١٩٥٣.

ويمكننا أن نحدد الملامح الرئيسة للمدرسة الشامية في الصحافة الثقافية العربية، ومن خلال ما بذلته هذه المدرسة في مصر على مدى أكثر من نصف قرن، في عناصر رئيسة أولها أن هذه المدرسة اهتمت بتحسين شكل المجلة الثقافية وأدخلت عليها تطورات واسعة في هذا المجال. ولا شك أن هذه المدرسة الشامية هي صاحبة الفضل الأول في تطوير المجلة الثقافية من ناحية الطباعة واستخدام الصورة وجمال الإخراج والتبويب. وليس من حق أحد أن يقلل من شأن هذا الإنجاز الكبير، فقد كان هذا الإنجاز هو العامل المساعد الأكبر لرواج المجلة الثقافية وسعة انتشارها، حتى وصل توزيع بعض هذه المجلات التي حرصت على تحقيق التزاوج بين الشكل الجميل والمادة الجيدة إلى مئات الألوف، مما أتاح لها قوة التأثير وعمقه.

على أن المدرسة الشامية قد اهتمت إلى جانب ذلك اهتماماً واسعاً بالثقافة الغربية وحرصت على متابعة هذه الثقافة ونقلها في صورة جيدة وميسرة إلى القارىء العربي، وبذلك فتحت هذه المدرسة نافذة غربية طيبة أمام الثقافة العربية الحديثة.

واهتمت المدرسة الشامية أيضاً بالتراث العربي واللغة العربية والثقافة العربية، وكان الدافع إلى ذلك هو محاولة هذه المدرسة الشامية تأكيد الطابع العربي. ففي ظل الفكرة العربية لا يكون هناك تناقض بين شامي ومصري، ويصبح وجود الشوام في مصر أمراً طبيعياً.

على أن المدرسة الشامية قد وقعت بسبب ظروفها التاريخية في خطأ كبير. فقد حرصت هذه المدرسة على أن تكون مجلاتها الثقافية محايدة وبعيدة كل البعد عن إثارة قضايا فكرية أو ثقافية أو سياسية حادة، لأن أصحاب هذه المدرسة في معظمهم كانوا حريصين على إرضاء السلطة القائمة في مصر في تلك الفترة، ما بين ١٨٨٢ و١٩٥٢، وهي سلطة كان يتحكم فيها الإنجليز بالدرجة الأولى. ولذلك ابتعدت هذه المدرسة الشامية عن تحويل مجلاتها الثقافية إلى منابر للدعوة إلى الحرية أو مهاجمة الاستعمار والأوضاع السياسية والاقتصادية الناتجة عنه والمساندة له، بل إن بعض أفراد هذه المدرسة قد ارتبطوا بالاستعمار ارتباطاً مباشراً. فقد كان فارس نمر ويعقوب صنوع وهما مؤسسا **المقتطف** من المتعاونين مع الإنجليز تعاوناً كاملاً، وقد أسسا مع شخص ثالث هو شاهين مكاريوس صحيفة يومية هي **المقطم**، وكانت هذه الصحيفة هي الناطقة بلسان الاحتلال البريطاني في مصر والمعبرة عنه. وقد توطدت صلة فارس نمر - على وجه التحديد - مع الإنجليز بعد أن تزوجت ابنته واسمها إيمي - فيما أذكر - بالمستر سمارت الذي كان يشغل وظيفة هامة في السفارة الإنجليزية هي وظيفة «المستشار الشرقي» للسفارة، وكان هذا الرجل متقناً للغة العربية كما كان من أخطر أعمدة الاستعمار البريطاني في مصر.

وقد أدى هذا الموقف لبعض الصحفيين الشوام في مصر إلى هجوم عنيف عليهم من جانب أصحاب الأقلام الوطنية. وبالطبع فإن هذا الهجوم لم يكن مقصوداً به شعب الشام العربي، بل كان مقصوداً به هذه النوعية من الكتاب الشوام الذين تحالفوا مع الاستعمار والقوى المعادية لشعب مصر. وعلى ضوء هذه الفكرة يمكننا أن نقرأ ما كتبه سلامة موسى حول ما أسماه «الصحفي السوري في مصر»، فقد كان مثل هذا الصحفي مرفوضاً عند الوطنيين في مصر والشام على السواء... يقول سلامه موسى (جريدة **المؤيد الجديد** في ٧ سبتمبر/أيلول ١٩٣٠): «ولنضرب مثلاً على الصحفي السوري في مصر بهذا الأستاذ كريم ثابت، ليرى القارىء كيف جعل «هذا الصحفي وأمثاله» منن الصحافة المصرية هذراً وهذياناً، يجمعون منها قروش العامة ويثرون منها، بينما عبد

القادر حمزة وعباس العقاد، وحافظ عوض، وتوفيق دياب، وأبو طايلة، وأحمد حلمي وغيرهم تقصف أقلامهم وتخرب بيوتهم».

ثم يقول سلامة موسى: «هذا الأستاذ كريم ثابت يكتب في مجلات الهلال قصصاً، يتكرر بعضها عشر مرات أحياناً عن فتح الله باشا بركات الذي يختلف عن سائر الناس أجمع، من حيث أنه لا يأكل الفول المدمس، وإنما هو يغمس اللقمة في مرق المدمس فقط. ويذكر الأمير فاروق فيقول عنه: أنه لا يخاطب جلالة والده أو والدته بقوله «يا صاحب الجلالة» أو «يا صاحبة الجلالة» وإنما يقول كما يقول سائر الأطفال في العالم «يا بابا» و«يا ماما»، ثم يذكر الأمير عمر طوسون فيقول عنه «أنه يدخن الشيشة قبل الظهر، ويدخنها أحياناً بعد الظهر، وأحياناً لا يدخنها قبل الظهر أو بعد الظهر، ثم هو، أي الأمير، يأكل في الغداء أكثر من العشاء، وأحياناً في العشاء أكثر من الغداء، ثم يقول إن الأستاذ لطفي السيد تقابل مع علي الشمسي باشا فبدلاً من أن يبدأ التحية علي باشا بدأها الأستاذ لطفي السيد (. . .) هذا هو الكاتب المثالي الذي يكتب للعامة هذا الهذر، ليضعف عقولهم، بينما كتابنا المخلصون قد قصفت أقلامهم وبعضهم يبحث عن عمل آخر غير الصحافة، يمكنه أن يعيش منه دون أن يتعرض للجوع».

وموقف سلامة موسى على عنفه، وما يفوح منه أحياناً من موقف إقليمي فيه شيء من التعصب، هو في جوهره موقف صادق. فقد حاولت المدرسة الشامية في مصر في صحفها اليومية ومجلاتها الثقافية معاً وفي نفس الوقت أن تنأى بقارئها عن أي موضوع جدي أو قضية حيوية، فإن قدمت له ثقافة فهي تقدم ذلك النوع من الثقافة التنويرية المحايدة التي لا تبني شخصية ولا تحرك عقلاً ولا إرادة.

ولا بد من التأكيد مرة أخرى أنا نسمي هذه المدرسة باسم المدرسة الشامية لأن أصحابها كانوا من الشام، ولكن الشام بالطبع غير مسؤولة عنهم، وليسوا هم التعبير الصحيح عن أهل الشام، فقد كان في الشام من يعارضون هذه المدرسة وكان في مصر من يؤيدونها ويعملون بأسلوبها ومنهجها. بل لا بد أن نذكر أنه كان في مصر شوام آخرون لا ينتمون إلى هذه المدرسة من أمثال: أديب اسحق وفرح أنطون ونقولا حداد. . . فقد كان هؤلاء من الأحرار المعارضين للاستعمار وما ينشره من أفكار. ولكنهم كانوا بصورة عامة ضعفاء من حيث التأثير لا من حيث القوة الفكرية، لأن الاستعمار كان يحاربهم ولا يعاونهم، بل كان الاستعمار يساند فارس نمر وكريم ثابت وغيرهما من المنتمين إليه، وكان يتيح لهم الفرصة لإنشاء الصحف والمجلات ويفتح أمامهم كل أبواب العون المادي بكل الصور والأساليب.

★ ★ ★

بعد الحديث عن هذه المدرسة الشامية في المجلات الثقافية بإيجابياتها وسلبياتها نجد أن الصحافة الثقافية في مصر قد انتقلت إلى ما يمكن أن نسميه باسم عصر الازدهار بين ثورة ١٩١٩ وثورة ١٩٥٢. وفي هذه الفترة ظهرت مجلات ثقافية بالغة الأهمية والقيمة والتأثير منها مجلات **أبوللو** وهي أول مجلة عربية متخصصة في الشعر، ومجلة **الرسالة** ومجلة **الثقافة** ومجلة **الفجر الجديد** ومجلة **الرواية** ومجلة **مجلتي**، وغير ذلك من المجلات الثقافية الكبرى.

ولو أردنا نموذجاً حياً للمجلة الثقافية الناجحة المؤثرة والتي تستحق أن يكون لها شأن عظيم في تاريخ المجلات الثقافية في الماضي والحاضر والمستقبل فإننا نختار مجلة **الرسالة**. فقد كانت هي المجلة الثقافية الأولى في تلك الفترة بغير منافس، وكانت المسافة بينها وبين غيرها من المجلات في القوة والتأثير ووضوح الفكر وأصالة التعبير مسافة واسعة وكبيرة.

ولأهمية هذه المجلة الثقافية ودورها الكبير في الحياة العقلية العربية الحديثة ومساهمتها النادرة في تطور المجتمع العربي وقدرتها حتى اليوم على أن تكون نموذجاً مثالياً للمجلة الثقافية العربية الناجحة. . . لهذه الأسباب كلها أود أن أقدم بعض الملامح الرئيسة لهذه المجلة معتمداً في ذلك على بحث سابق لي عنها.

فقد حققت هذه المجلة عدة أهداف رئيسة منها:

١ ـ كانت الرسالة منذ صدورها تدعو إلى عروبة مصر دعوة واضحة حاسمة وكانت ترد بدعوتها هذه على التيارات الإقليمية الانعزالية وعلى رأسها التيار الفرعوني. كما كانت ترد على التيار الذي أخذ بمبدأ الخديوي إسماعيل من أن مصر جزء من أوروبا ولا علاقة لها بالشرق، وكان الشرق المقصود هو الشرق العربي بالتحديد.

٢ ـ لم تتوقف المجلة عند حدود الدعوة إلى عروبة مصر بل دعت دعوة صريحة إلى القومية العربية كما نادى بها عبد الناصر فيما بعد، وكما يعرفها القوميون ويدعون إليها حتى اليوم.

٣ ـ وقفت المجلة من قضية فلسطين موقفاً عربياً ملتزماً واعياً منذ البداية، وساندت ثورة ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩، ثم ركزت جهودها الأدبية والفكرية في مساندة هذه القضية بصورة مكثفة بعد الحرب العالمية الثانية.

٤ ـ لم تتوقف المجلة عند الحدود القومية لمعركة تطوير المجتمع العربي وتنويره، بل تجاوزت ذلك إلى الدعوة الاجتماعية الصريحة، فالرسالة على لسان صاحبها ورئيس تحريرها أحمد حسن الزيات هي صاحبة الدعوة المبكرة في الثلاثينات إلى محاربة ثالوث «الفقر والجهل والمرض». وهذا الثالوث الشهير هو من التعبيرات التي ابتكرها الزيات في **الرسالة**، وشاعت على الألسن والأقلام فيما بعد غير منسوبة إلى صاحبها وغير معروفة المصدر.

٥ ـ وقفت **الرسالة** منذ صدورها وحتى النهاية إلى جانب حركات التجديد الفكرية والأدبية والاجتماعية في مصر والوطن العربي، وقد حرصت المجلة على أن تؤيد التجديد في ظل فكرتها الأساسية عن أصالة التراث العربي وضرورة اتصاله وتفاعله مع الثقافة المعاصرة.

٦ - بالنسبة للحركة الوطنية في مصر كانت المجلة دائمة التركيز على رموزها الأساسية، ويكفي أن أقول إن أول كتاب ظهر في المكتبة العربية عن أحمد عرابي قد تم نشر فصوله كلها على مدى ما يقرب من عام كامل على صفحات **الرسالة**، وكان عنوان الكتاب هو **أحمد عرابي الزعيم المفترى عليه** للكاتب المؤرخ والأديب الشاعر محمود الخفيف، وكان أحد النجوم اللامعة على صفحات **الرسالة**.

٧ - أشير بعد ذلك بغير تفصيل إلى بعض المعارك التي خاضتها **الرسالة** على مدى سنواتها العشرين، فمن هذه المعارك معركة إصلاح الأزهر، ومعركة اصلاح النحو العربي، ومعركة تجديد الفكر الديني الإسلامي بما يعبر عن روح العصر وما حدث فيه من تطور واسع كبير، ومعركة الرد على كتاب سلامة موسى **اللغة العربية والبلاغة العصرية** الذي امتلأ بالهجوم العنيف على اللغة العربية والدعوة إلى هجرها والأخذ بفكرة الكتابة بالعامية، ومعركة الرد على ما قال به الكاتب الكبير أحمد أمين من أن الأدب العربي القديم هو أدب معدة لا أدب روح، وأن هذا الأدب لا جدوى منه بالنسبة لنهضتنا المعاصرة. . .

تلك هي الملامح العامة لمجلة **الرسالة**، وقد اختارت المجلة للتعبير عن قضاياها جميعاً مجموعة من أفضل الأقلام والمواهب العربية التي ظهرت في سائر الأقطار العربية خلال فترة صدور المجلة من سنة ١٩٣٣ إلى ١٩٥٣.

ولم تكد مجلة **الرسالة** تتوقف عن الصدور سنة ١٩٥٣ حتى صدرت في العام نفسه مجلة **الآداب** اللبنانية، وما زالت هذه المجلة الرائدة تصدر حتى الآن في رحلة جهاد ثقافي شاق. ولكن هذه الرحلة حققت درجة عالية من النجاح والتأثير، ويكاد ما قلته عن مجلة **الرسالة** ينطبق على مجلة **الآداب** مع اختلاف واحد هو اختلاف العصر والأجيال والقضايا المطروحة. فقد لعبت مجلة **الآداب** دوراً تاريخياً في توحيد الثقافة العربية، وكسر حواجز الإقليمية الصلبة، كما ربطت المجلة بين الأدب والقضية القومية العربية برباط وثيق، وخاضت معارك كبيرة ومنتصرة للدفاع عن العروبة وطناً وثقافة ولغة وقومية. وقد تحملت هذه المجلة عبء تقديم جيلين على الأقل من أجيال الثقافة العربية المعاصرة منذ ١٩٥٣ إلى الآن، ومعظم الأسماء اللامعة اليوم في سماء الثقافة العربية بدأت مسيرتها على صفحات **الآداب** واشتد عودها وأصبحت أشجاراً غنية بالثمار على صفحات هذه المجلة. ويكفي أن أقول إن مجلة **الآداب** هي التي جعلت من حركة الشعر الجديد حركة أدبية راسخة ومعترفاً بها من الدارسين **والذوق العام. وكانت هذه الحركة عند صدور الآداب حركة محاصرة** ومحدودة التأثير ومهملة من منابر النشر والتعبير ومرفوضة من الذوق الأدبي العام، وأصبحت هذه الحركة الشعرية الجديدة فصلاً بالغ الأهمية من فصول الأدب العربي لا يمكن أن يتجاهله مؤيد أو معارض، كما أن هذه الحركة الشعرية التي مثلت نقطة تحول جوهرية في تاريخ الشعر العربي قد أصبحت بفضل **الآداب** حركة مؤثرة على الذوق العربي العام، وأصبحت عنصراً قوياً من عناصر التأثير القوي في الاتجاهات المختلفة للمجتمع العربي نفسه.

وأذكر أنه عندما بدأت **الآداب** سنة ١٩٥٣ لم يكن أحد من الجيل الأدبي الذي ظهر في الخمسينات والستينات في مصر يستطيع أن ينشر قصيدة أو قصة أو مقالاً نقدياً، فقد كانت الطرق كلها مسدودة بصورة شبه كاملة أمام هذا الجيل الذي أنتمي إليه. وعندما اتجهنا إلى **الآداب** وجدنا باباً مفتوحاً لا يسأل من أنت. بل يسأل ماذا كتبت، ولا يقيس العمل الأدبي والفكري بمقاييس تقليدية بل يفتح باباً واسعاً للتجديد ويتحمس له ويفضله على أي انتاج تقليدي. ولم تكد الستينات تبدأ حتى كان الجيل الذي تبنته **الآداب** وقامت برعايته قد استقر واستطاع أن يفرض نفسه على الحياة الأدبية في مصر والوطن العربي. ولست أشك في أن ما حدث لنا في مصر مع **الآداب** قد حدث في سائر الأقطار العربية الأخرى، ولولا **الآداب** لتعثرت الأجيال الأدبية التي ظهرت في الخمسينات والستينات تعثراً شديداً ولم تستطع أن تحقق لنفسها ولا للأدب العربي شيئاً مذكوراً.

★ ★ ★

وإذا واصلنا رحلتنا مع المجلات الثقافية العربية. فسوف نشهد **ميلاد مرحلة جديدة في هذه المجلات بعد مرحلة التأسيس**، والمرحلة الشامية، ومرحلة الازدهار، والمرحلة الجديدة بدأت على التقريب منذ منتصف الستينات ثم غلبت وسيطرت وسادت في السبعينات والثمانينات، ويمكننا أن نسمي هذه المرحلة باسم مرحلة سيطرة الدولة على المجلات الثقافية في معظم أنحاء الوطن العربي، وهي المرحلة التي ما زالت قائمة إلى الآن مع **استثناءات قليلة**.

ومرحلة سيطرة الدولة على المجلات الثقافية تطرح أمامنا عدداً من الظواهر الأساسية سأحاول تلخيصها فيما يلي:

١ - سيطرة الدولة على المجلات الثقافية تعني أن رئيس التحرير لا بد أن يكون موظفاً، والوظيفة بطبعها قيد شديد على المفكر، لأنه لا يستطيع أن يتحرك في حرية على هدي ما يؤمن به، بل عليه أن يلتزم بسياسة الدولة، وهذا أمر لا غبار عليه إذا كان رئيس التحرير متفقاً مع سياسة الدولة، ومن البديهي أن يكون كذلك وإلا فإنه لا يستطيع أن يصل إلى منصب رئاسة التحرير. ولكن من الذي يحدد سياسة الدولة في المجلات الثقافية؟. . . . إن تحديد هذه السياسة في الثقافة أمر عسير، لأن الثقافة ليست مثل الصحة والمواصلات والتعليم يمكن تحديدها بقدر من اليسر والسهولة. ومن هنا تضطرب الأمور في المجلة الثقافية الحكومية وتتعرض هذه المجلة للتغير المستمر في رؤساء تحريرها، مما يؤدي إلى تغير أساليب التعبير والتفكير، ويؤدي بالتالي إلى عدم التراكم الثقافي الذي يخلق أجيالاً جديدة واتجاهات جديدة ويعمل على تأصيل هذه الاتجاهات وترسيخها. وأذكر هنا على سبيل المثال أن مجلة **الهلال**، التي تمر الآن

بفترة ازدهار على يد رئيس تحريرها الحالي الأستاذ مصطفى نبيل، قد توالى على رئاسة تحريرها، منذ أصبحت مجلة حكومية سنة ١٩٦٠ وحتى الآن، عشرة رؤساء تحرير بمعدل ثلاث سنوات لكل رئيس تحرير، رغم أن مجلة مثل **العربي** منذ صدورها سنة ١٩٥٨ إلى الآن لم يزد رؤساء تحريرها عن ثلاثة. ورؤساء التحرير هؤلاء يختلفون عن بعضهم البعض اختلافاً كبيراً في تصوراتهم الأدبية والثقافية والسياسية، ويكفي أن أذكر بعض أسماء رؤساء التحرير هؤلاء وهم: طاهر الطناحي، علي أمين، كامل زهيري، حسين مؤنس، علي الراعي، صالح جدوت، كمال النجمي. وهذا الذي حدث في **الهلال** يحدث في معظم المجلات الثقافية الأخرى، مما يعرض هذه المجلات للاضطراب في الاتجاه والهدف، ويجعل من المجلة الواحدة عدة مجلات مختلفة الاتجاه والشخصية، وان احتفظت المجلة بالاسم نفسه.

٢ ـ المجلة الثقافية الحكومية مباحة للتدخل من القوى الرسمية الموجودة داخل المجتمع، حتى لو كانت هذه القوى بعيدة من الناحية الشكلية عن مسؤولية المجلة، وهذا التدخل كثيراً ما يفسد مسيرة المجلة الثقافية. وأذكر في هذا المجال تجربتين شخصيتين، وأنا لا أذكرهما هنا إلا لأنهما يتصلان بموضوع البحث وليس لأنهما يتصلان بشخصي. أما التجربة الأولى فهي تجربتي في رئاسة تحرير مجلة **الهلال** للمرة الثانية ولفترة قصيرة سنة ١٩٧٦. وكانت رئيسة مؤسسة دار الهلال في ذلك الوقت هي الكاتبة المعروفة أمينة السعيد، وقد تحمست هذه السيدة الكريمة الفاضلة لاختياري لرئاسة تحرير **الهلال**، وبالفعل توليت العمل وكان اسمي يكتب تحت عبارة «المشرف على التحرير». وكنا في عصر الرئيس الراحل أنور السادات. وكان لا بد من موافقة السادات على اسم أي رئيس للتحرير قبل صدور القرار بتعيينه، وفي تلك الفترة كان الأديب الراحل يوسف السباعي هو أقوى شخصية أدبية في مراكز السلطة في مصر. وعندما علم السباعي باختياري لرئاسة تحرير **الهلال** ذهب بنفسه إلى السادات وقدم استقالته من كل مناصبه احتجاجاً على اختياري لمنصب رئيس تحرير الهلال، وأصدر السادات أمره بإيقاف القرار. وأخبرتني السيدة الفاضلة أمينة السعيد بعد ذلك أن السباعي ظل مقاطعاً لها مقاطعة كاملة من سنة ١٩٧٦ حتى وفاته سنة ١٩٧٨، وكانت بينهما مودة وصداقة وزمالة قديمة. كان السباعي أقوى مني بكثير، وكانت سلطاته بغير حدود، وكان يستطيع أن يصدر ما يشاء من المجلات الثقافية في أي وقت وبالصورة التي يريدها. ولكنه رأى أن وجودي في مجلة **الهلال** أمر يمس بسلطانه الأدبي، لا لشيء إلا لأنني على حد قوله لا أعترف بأدبه، كما أنني معروف بمناصرتي لأدب نجيب محفوظ. ولم تكن مناصرتي لنجيب محفوظ إلا بهدف واحد ـ في نظر السباعي ـ هو أن أعاند السباعي وأقضي عليه كأديب.

وهنا لا بد من الإشارة إلى أن السباعي لم يستخدم في حربه ضدي لغة الأدب والثقافة، وإنما استخدم ما جرت العادة على استخدامه في مثل هذه الحالات من الاتهام بعدم الولاء للدولة.

أما الموقف الثاني الذي أود أن أشير إليه فقد حدث عندما كنت رئيساً لتحرير مجلة **الدوحة** القطرية والتي كانت تصدرها وزارة الإعلام هناك. ففي عدد مارس/آذار سنة ١٩٨٣ نشرت مقالاً للأستاذ حسين أحمد أمين بعنوان «استنكار البدعة وكراهية التجديد موقف إسلامي أم جاهلي». وكان المقال يتضمن بعض الآراء المتحررة المعروفة عن حسين أحمد أمين، وقد نشرت المقال لما وجدته فيه من دعوة المسلمين إلى الاهتمام بقضايا العصر وعدم التحرج في الاستفادة من الجوانب الإيجابية في الحضارة الحديثة. وكنت أنشر مثل هذه المقالات وأنا مرتاح الضمير من الناحية الدينية والفكرية، فالمقال في جوهره حض للمسلمين على الإيجابية والتلاؤم مع العصر، فإن ظهر في المقال خطأ هنا أو هناك فإن تعديل الخطأ إنما يكون بالرد عليه والحوار معه وإثبات وجهة النظر المعارضة بالدليل والبرهان. ولكن هذا المقال لم يكد يظهر حتى هبت عاصفة من بعض رجال الدين ضدي وضد حسين أمين وضد مجلة **الدوحة**، ولم يلجأ المعارضون للمقال إلى الحوار أو الرد العلمي بل أصدروا فتوى قالوا في ختامها: «إن من يروجون لهذه الأفكار (أي أفكار حسين أمين) إنما يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر ويكيدون للإسلام والمسلمين» ثم انتهت الفتوى بأن قالت «إن أقل ما يستحقه رئيس التحرير من العقوبة هو الإبعاد من البلاد فوراً، ومنع نشر أية مقالة للمدعو حسين أحمد أمين في دولة قطر، كما نوصي كافة الأقطار الاسلامية بعدم تمكينه من نشر سمومه من خلال وسائل إعلامهم».

على أن هذه القصة قد انتهت نهاية هادئة، فقد وقف سمو أمير دولة قطر، ووزير إعلامها في ذلك الحين الدكتور عيسى غانم الكواري موقفاً عادلاً حكيماً بالتنبيه على مجلة **الدوحة** بعدم نشر أي مقال في الفكر الديني دون مراجعة من علماء الدين، ورضي الغاضبون من رجال الدين بهذا القرار، وبقيت رئيساً لتحرير مجلة **الدوحة** حتى توقفت عن الصدور سنة ١٩٨٦، ولكني منذ تلك التجربة المؤلمة ازددت يقيناً بأن رئاسة تحرير مجلة ثقافية حكومية هو أمر بالغ العسر والتعقيد.

٣ ـ المجلات الثقافية الحكومية تتعرض كثيراً لضغط الإعلام عليها، فالمطلوب من المجلة الثقافية الحكومية أن يكون لها مردود إعلامي سريع، بينما العمل الثقافي بطيء في تأثيره ولا يتحمل أسلوب التعبئة الإعلامية المباشرة.

٤ ـ المجلة الثقافية الحكومية تخلق عند المسؤولين عنها رقابة قاسية من داخل عقولهم ومشاعرهم، وهذه الرقابة الداخلية قيد أخطر من القيود التي يمكن أن يفرضها أي رقيب خارجي.

٥ ـ هناك قضية حساسة أخرى تثيرها المجلة الثقافية الحكومية. فالمجلات الحكومية تتمتع في الغالب بإمكانيات مادية كبيرة، مما يجعل

الكثيرين حريصين على أن يساهموا فيها حتى لو لم يكونوا أهلاً لذلك. وقد عانيت كثيراً في تجربتي مع المجلات الثقافية من هؤلاء الذين اكتشفوا فجأة أنهم شعراء وقصاصون وأصحاب فكر وثقافة. لا لشيء إلا بدافع الرغبة في عائد مادي له قيمته.

٦ - على أن أخطر ما تتعرض له المجلات الثقافية الحكومية وخاصة في عصر البترول هي أنها كثيراً ما تؤدي بمن يتعاملون معها من المثقفين إلى أن يتعودوا على الحذر والتحفظ واستبعاد كل لفظ أو فكرة أو عبارة قد تثير الاعتراض وتؤدي إلى منع النشر. ومثل هذه الحالة سوف تجعل مساحة الفكر التقليدي المحافظ - مع الزمن - أوسع من الفكر التجديدي الحر الجريء.

على أن هذه التحفظات على المجلات الثقافية الحكومية لا تمنع من وجود محاولات متميزة للخروج بالمجلة الحكومية إلى دائرة الإشعاع والتأثير، ويتوقف هذا بالطبع على شخصية رئيس التحرير وظروف البلد التي تصدر المجلة الثقافية فيه، ولا شك أن الكويت تقدم نموذجاً طيباً في هذا المجال من خلال العربي التي توفر لها من الاستقرار والحرية ما ساعدها على التقدم والانطلاق الواسع. وقد أتيح للمجلة منذ سنة ١٩٨٣ رئيس تحرير مثقف واسع الأفق متحرر الفكر هو الدكتور محمد الرميحي، فاستطاع أن يخطو بالمجلة خطوات واسعة نحو النجاح، رغم صعوبة الظروف التي تحيط بكل المجلات الثقافية الحكومية.

والحديث عن المستقبل ليس بالأمر اليسير، فالظروف العربية الراهنة بالغة التعقيد، والمجلة الثقافية للأسف ليست من قضايا الدرجة الأولى في المجتمع العربي، ولذلك ففي تصوري أن الأمر سوف يظل على اضطرابه الراهن، ويتوقف النجاح الذي يمكن أن تحققه المجلة الثقافية على جهود المسؤولين عنها ومدى حيويتهم وجرأتهم وفهمهم للقضايا الحية الجديدة بالعرض والإثارة، كما يتوقف الأمر على ما تقدمه الحكومات التي تصدر هذه المجلات من دعم مادي ورحابة صدر في التعبير والتفكير. ولا أعتقد أن القضية سوف تجد حلها النهائي في المستقبل القريب، بحيث نصل إلى عصر الازدهار الكبير في ميدان المجلات الثقافية التي لا تعاني من القيود والتعقيدات، وقد يكون الأمل في المستقبل مرتبطاً بظهور مؤسسات ثقافية في الوطن العربي تتمتع بالقوة المادية والإيمان الواسع بالحرية الفكرية، فتوفر مساندة كاملة لمجلات ثقافية رفيعة المستوى يصدرها مفكرون مهيأون للقيام بهذه الرسالة. والحق أنني لست من المتشائمين بما يأتي به المستقبل وإن كنت لا أريد أن أكون في الوقت نفسه من الحالمين.

صدر حديثاً

فاروق عبد القادر

رؤى الواقع وهموم الثورة المحاصرة

دراسات في المسرح المعاصر

دار الآداب - بيروت